دراسات

الحجـــر والعــزاء

رؤية فلسفية لأصل معاناة الحجر

ذ. الحسن أسويق

مركز أفكار للدراسات والأبحاث
Afkaar Center for Studies and Research

ALL RESERVED©2020
جميع الحقوق محفوظة © 2020

الحجـــر والعــزاء

رؤية فلسفية لأصل معاناة الحجر

ذ. الحسن أسويق

أستاذ الفلسفة وتاريخ العلوم بالكلية متعددة التخصصات بالناظور- جامعة محمد الأول (وجدة)

تقديـــم

في غياب أي دواء أو لقاح، تمضي جائحة كورونا في حصد الآلاف المؤلفة من الأرواح عبر العالم يوماً بعد يوم. وأمام شراسة الفيروس التاجي الذي ينتشر بسرعة مهولة، أُجبرت ساكنة المعمور المرعوبة، على الدخول في "حجر صحي" اضطراري؛ حجر يعتقد العلماء ، حالياً، أنه الإجراء الاحترازي الوحيد للحد من تفشّيه. ومع طول هذا الحجر، الذي يبدو أنه سيطول أكثر، وفي غياب أو ضعف البنيات الإعدادية والإستعدادية لمواجهة هذه الوضعية غير المسبوقة في تاريخ الإنسانية، بدأت تظهر صعوبات تطبيق هذا الحجر، كما بدأت تظهر انعكاساته النفسية والصحية السلبية على الأفراد والجماعات، مما يعني أنه صار يتحول إلى "حجر مرضي" سينتج أمراضاً وأعراضاً جانبية إضافية ستنهك ميزانيات دول العالم التي أصبحت اقتصاداتها مهددة بالإفلاس. وفي الوقت الذي دخل فيه الإنسان مرحلة الحجر، وما ترتب عن هذه الوضعية من قنوط وملل؛ بل وخوف وهلع، بدأت الطبيعة تستعيد حيويتها وقد تحررت من الاستغلال البشع والمفرط من طرف الإنسان.

أن تستعيد الطبيعة نقاءها وانشراحها معناه أن حريتنا المفرطة كانت على حساب "حقوق الطبيعة". الآن وقد انبرت الطبيعة للدفاع عن نفسها، فقد الإنسان حريته الخارجية، فهل له، والحالة هذه، القدرة على الاستعاضة عنها ب"حرية داخلية"، تقيه من صدمة اللامعنى؟

يبدو أن كل التدابير المتخذة والميزانيات المرصودة قد عجزت، لحد الآن، عن وضع حد لهذا الوباء المسلط على الإنسانية[1]، الذي من بين أسباب امتداده الاكتضاضُ والكثافةُ السكانية ، سواء في الدول القوية أو الضعيفة اقتصادياً؛ في المدن الكبرى كما في الأحياء الشعبية الآهلة بالسكان؛ إذ يصعب تطبيق "التماسف" (التباعد) ، كما تجد السلطات صعوبات كبيرة في إقناع الساكنة باحترام حالة الطوارئ إذ يُطلب منهم أن يلزموا بيوتهم.

وبالرغم من جدوى الحجر كإجراء صحي وقائي، فإنه يبدو أن آثاره على النفوس والأبدان ستكون فادحة، بالنظر إلى الظروف السكنية الخانقة التي تعيش فيها الأغلبية

[1] * كلمة épidémie ذات أصل يوناني؛ مركبة من: epi أي "فوق" و dêmos أي "الشعب".

الساحقة من ساكنة المعمور المحفوف الآن بالوباء القاتل. فإلى أي حدّ وإلى أي مدى يمكن لهذا الحجر أن يستمر؟

وإذا كان كبار السن والعجزة هم الأكثر تضرراً من هذا الوباء، أكان طبيعياً أو اصطناعياً، فإن الإنسانية قاطبة وجدت نفسها تدخل تجربة الشيخوخة، التي تحتاج للمواساة والعزاء. ولمّا كان الحجر الإجباري ليس كالتبتّل الاختياري، عسيراً ليس بيسير، فهل يمتلك الإنسان ذلك الخزّان الطاقي الذي يتطلبه الأمر للخروج منه بأقل الخسائر؟.

غرضنا في هذه الورقة بيانُ أصل معاناة الحجر، وفق رؤية فلسفية، وانطلاقاً من ثلاث مسائل، تتقاطع مع الأسئلة أعلاه، وهي التي يُسأل عنها في ما سيأتي من قول:

1- بأي معنى وإلى أي حد تُعتبر الطبيعة الإنسانية أصلاً لمحنة الحجر انطلاقاً من نظرية الفيلسوف الفرنسي بليز باسكال حول "اللهو" ؟
2- كيف ساهمت سلبيات نمط السكن الحديث في استفحال أزمة "كورونا" انطلاقاً من مفهوم السكن عند الفيلسوف الألماني مارتن هايدغر؟
3- بأي معنى يمكن اعتبار تجربة الحجر أشبه بتجربة الشيخوخة كما تصورها الفيلسوف الروماني كيكرو[2] ؟

1 – معاناة الحجر في ضوء نظرية بليز باسكال حول اللهو Divertissement

صحيح أن "اللهو" تيمة رواقية[3] قديمة؛ لكن أصالة بليز باسكال (1623- 1662) تكمن أنه أضفى على "اللهو" دلالة ميتافيزيقية ، وجعل منه مقولة أخلاقية؛ بل ونظرية متكاملة لفهم الطبيعة الإنسانية وشرطه الشقي.

وانسجاماً مع ما نحن بسبيله، لنر كيف يجيب باسكال عن السؤال التالي: ما الذي يجعل الحجر الاضطراري صعب التحمل ومصدر معاناة وشقاء ؟

السبب في نظره يكمن في أن الحجر يحد من حركة الإنسان. وحسب القول المأثور لهذا الفيلسوف فإن " كل مآسي الناس ناتجة عن شيء واحد، هو أنهم لا يعرفون أن يمكثوا داخل بيوتهم بدون حركة "[4]. وإذا كان هذا هو سبب cause كل مآسيه، فإن السبب الثاوي وراء ذلكraison " يكمن في الشقاء الطبيعي لشرطنا الضعيف والفاني، والذي بلغ درجة

---

[*] اسمه الكامل: Marcus Tullius Cicero (106 – 43 ق.م). يذكر حميد العواضي، مترجم مقال التاريخ والترجمة لصاحبه: لين لونغ، بمجلة التعريب التي تصدر عن المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر بدمشق، العدد: 53 من سنة 2017، ص. ص. 135 – 157، أنه "تعددت طرق كتابة اسم هذا العلم بحسب اللغات المختلفة، وأثر ذلك في نقد الاسم إلى اللغة العربية. فبعضهم يسميه "سيسرون" ربما بتأثير اللغة الفرنسية (Ciceron) أو "سيسرو" (cicero) بتأثير اللغة الانجليزية، أو "تشيشرون" أو "شيشرو" كما كان ينطق كنسياً ، وإن كان ينطق "كيكرو" أو "كيكرون" في اللغة اليونانية. غير أنه يغفل عن ذكر معلومة مهمة هي أن اسمه Cicero يعني الحمص pois chiche, وقد سمي كذلك لأن أحد أجداده كان على أنفه (البعض يقول جبهته) ثؤلول يشبه الحمص. ويُعتقد أن الكلمة ذات أصل أمازيغي بينما يذهب آخرون إلى أنها من أصل لاتيني.

[*] قبل باسكال، نجد مفهوم اللهو حاضراً بشكل لافت عند الرواقيين (أو "فلاسفة الحرية الداخلية" كما يطلق عليهم) الذين وظفوه بنفس المعنى الباسكالي تقريباً. هكذا نجد **سنيكا** يعرفه بأنه تلك الحركة التي تلهينا عن التفكير في شرور الوجود ولو لبعض الوقت، **سنيكا** في "***طمأنينة النفس***" (ضمن: Lucio Anneo Séneca, **diálogos**, estudio preliminar, traducciónу notas de Carmen codoñer, cuarta edicion, Tecnos, Madrid, 2016.)

[4] Blaise Pascal, ***Pensées***, Hachette, 1950,p. 64. (1969 طبع الكتاب أول مرة عام)

من البؤس يتعذر معها إيجاد شيء يواسينا ونحن نفكر في ذلك عن قرب"[5]. إن الناس، يقول باسكال، "عندما عجزوا إيجاد علاج للموت، والشقاء، والجهل، قرروا، لكي يصبحوا سعداء، عدم التفكير في كل ذلك"[6].

لقد أصبح الناس الآن ممنوعين من مغادرة بيوتهم، إلّا لضرورات قصوى، وبمقتضى قوانين أملت الحاجة الملحة استصدارها. ومن ثمة، فهم في وضعية شبيهة بوضعية سجين يعيش "معاناة رهيبة"[7] لتواجده في مكان مغلق والحركة فيه محدودة. وهذا ما يفسر أن الإنسان، يحب الضجيج والضوضاء، ويخشى العزلة بقدر ما يخشى السجن؛ لقد صار الإنسان محروماً، إلّا في حدود دنيا وتحت رقابة صارمة، من حرية التنقل والتّزاور والصيد، والعمل، والرياضة، والمغامرات الغرامية، والسفر، والدراسة، واللعب....الخ، أي من كل الأنشطة المُعزّيّة؛ الجدية منها، والهزلية التافهة، التي يُبيحها لنفسه من أجل الهروب من القنوط والملل والسوداوية؛ كل الأنشطة التي تجعله يحس بالسعادة ولو على سبيل الوهم، التي تنجيه من "الالتقاء بنفسه"، أي تنجيه مما سماه أبو حيان التوحيدي: "البينونة"[8]. ولأن الإنسان عاجز عن إيجاد حلّ لمشكلة الموت، تجده يحاول النسيان، ويبحث عن كل الوسائل، والحيل، والمراوغات stratagèmes ؛ بل والمغامرات والمخاطرات، التي تجعله "يلهو إلى أقصى الحدود ويفكر إلى أدنى الحدود".

إن اللهو، بما هو مجموع الحيل التي يحاول الإنسان أن يداري بها شقاءه، يؤدي وظيفة نفعية؛ إذ يحميه من اليأس ويجعله يُقبل على الحياة؛ لكن لا يجنبه الموت، بل يقوده إليها دون أن يحس"[9]. وحسب التيولوجيا الباسكالية فكلما ابتعد الإنسان عن الله[10] كان شقياً وكلما اقترب منه كان سعيداً. أي أن السعادة الحقيقية تكمن في أن يكون الإنسان بجانب الله.

تكمن مفارقة اللهو في أنه الشيء الوحيد الذي يواسينا في مآسينا؛ لكنه، في نفس الوقت، هو مأساتنا الكبرى، لكونه يمنعنا من التفكير في ذاتنا، ويلقي بنا إلى الضياع دون أن نحس بذلك"[11]، كما تكمن في أن الإنسان يأخذ اللهو، بما هو لهو ولعب، مأخذ الجد.

على ضوء ما تقدم، يمكننا القول إن دخول الإنسان في الحجر ليس إلا من قبيل الحماية، لأنه لا يمكن للإنسان أن يظل في بيته حباً وطواعية، فهو في حاجة إلى حركة دائمة . مثل الصياد الذي يجد متعة في الجري وراءه، ولكنه "لن يرغب فيه إذا قُدم له جاهزاً"[12]،

---

[5] ibidem.
[6] Ibid., p.75.
[7] Ibid., p.65.
[8] أبو حيان التوحيدي، المقابسات، تحقيق وتعليق: حسن السندوبي، دار المعارف، سوسة\ تونس، 1991، ص. 53.
[9] Blaise Pascal, ***Pensées***, op.cit.,p.76.
[*] لا يجزم باسكال بوجود الله؛ لكنه يدعو للإيمان بوجوده، إنه نوع من الرهان Pari؛ إذا كان موجوداً فإننا سنربح مكاناً مضموناً في الجنة، وإذا لم يكن موجوداً، فإننا لن نخسر أي شيء. يقول: " لنفكر بمنطق الربح والخسارة، معتبرين أن الله موجود (Dieu est). ولنتأمل الحالتين: إذا ربحتم، فستربحون كل شيء؛ وإذا خسرتم فلن تخسروا أي شيء. فلتربحوا إذن وجوده، وبدون تردد"، **Pensées**, op.cit., p. 95.
[11] Blaise Pascal, ***Pensées***, op.cit.,p.75.
[12] Ibid., p. 65.

لأننا "نفضل الصيد على الحصول على الفريسة"[13]، كما أنه إذا "كان الأرنب لا يمنعنا من النظر في الموت، فإن الصيد يمنعنا من ذلك فعلاً"[14].

وفي علاقة بذلك، يرى باسكال في هذه السعادة مجرد سعادة زائفة، أما السعادة الحقيقية فتكمن في ما يصنع عظمة الإنسان، وهو التفكير . وهذا ما يعبر عنه بالقول:" لقد خلق الإنسان لمعرفة الكون، والنظر العقلي في جميع الأشياء، لتسيير دولة بكاملها، وإذا بنا نجده منشغلاً وحريصاً على القبض على أرنب"[15]، ويضيف، في نفس السياق، "جليّ أن الإنسان وُجد من أجل أن يفكر؛ وهنا تكمن كلّ كرامته وقيمته؛ كل واجبه هو أن يفكر كما يجب. ويقتضي نظام التفكير أن يبدأ بنفسه"[16].

الحجر إذن فرصة للتفكير والتأمل في الذات، وهذا، لا شك، يحتاج إلى الهدوء والسكينة. هل يوفر السكن المعاصر ذلك؟

2 - **الحجر وأزمة السكن: هايدغر**(1889-1976)

تُسجل النسب العالية للمصابين بعدوى فيروس كورونا المستجد في المدن الكبرى عبر العالم، سواء في الدول الغنية أو الفقيرة. وذلك لسبب رئيسي هو الكثافة السكانية[17]، حيث يصعب تطبيق ما صار معروفاً بـ"التماسف (التباعد) الاجتماعي" la distanciation sociale بسبب الازدحام والاكتضاض، سواء في الفضاءات العمومية أو داخل المنازل .

هذه المدن التي صُممت وفقاً لتصور تقني وكمي للمجال، وعلى قاعدة "معايير حسابية"[18] ووفقاً لنموذج "الهندسة السجنية" "architecture carcérale" بالمعنى الفوكوي[19]، الذي يقوم على هاجس الضبط والتحكم، كما يستجيب، من جهة أخرى، لمعايير "المدينة الوظيفية " ولإيقاع عالم السرعة؛ نموذج يقوم، فلسفياً، على فكرة "الإنسان – الآلة" في خدمة "المدينة – الآلة" التي تعجّ ببنايات شاهقة فضيعة وعمارات مختلفة الأطوال والأحجام، تأوي الأغلبية الساحقة من الطبقات الفقيرة والمتوسطة؛ بداخل "مساكن وظيفية" لا تصلح إلاّ لـ"لحياة العملية" وفي خدمة الرأسمالية المتوحشة.

إنه النموذج السكني الذي انتقده العديد من مفكري وفلاسفة ما بعد الحداثة، الذين أبرزوا مساوئ السياسات العمومية في مجال الإسكان وتهيئة المجال، من بينهم الفيلسوف الألماني

---

[13] Ibidem.
[14] Ibidem.
[15] Ibid., p. 68.
[16] Ibid., p.70.

[*] في كتابه عن الحروب البلوبونيزية، يذكر أن العدد الكبير، الذي يقدر بعشرات الآلاف من الضحايا، الذي خلفه الطاعون الذي اجتاح أثينا في فترة ما بين 430 و 426 قبل الميلاد، سببه الإستراتيجية العسكرية التي انتهجها القائد العسكري بيركليس، الذي لقي حتفه أيضاً بسبب الطاعون، والقاضية بنقل سكان المناطق الريفية المجاورة إلى داخل أسوار مدينة أثينا المكتظة بسكانها مما حولها إلى مرتع للمرض، وإلى شبه مقبرة جماعية.

[18] Céline Bonicco – Donato, ***Heidegger et la question de l'habiter. Une philosophie de l'architecture***, Parenthèses, 2019, p. 7.

[19] يُنظر الفصل الأول بعنوان: ***المؤسسات الكاملة والصارمة***، من ص. 235 إلى ص. 257، (وتحديداً ص. 248) من القسم الرابع بعنوان: ***السجن***. ميشيل فوكو، ***المراقبة والمعاقبة. ولادة السجن***، ترجمة : د.علي مقلد، مراجعة وتقديم: مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1990. (صدر الكتاب في أصله الفرنسي عام 1975).

المرموق مارتن هايدغر الذي ألقى محاضرة في الخامس من شهر غشت عام 1951، وفي إطار ندوة حول " الإنسان والمجال" تحمل عنوان: " الإقامة، السكن، التفكير"، ألقاها أمام مجموعة من الطلبة والفلاسفة، والمهندسين المعماريين وغير المعماريين. في هذه المحاضرة يراجع هايدغر التمثل السائد حول السكن انطلاقا من سؤالين محوريين هما: ما معنى السكن؟ وكيف تشكل الإقامة جزءاً من السكن؟

إن السكن، الذي يناقشه هايدغر في نصه المشار إليه، يكتسب بعداً أكثر تميزاً وشمولية، إذ يشمل كيفية الوجود الإنساني على الأرض، ومن ثمة يتجاوز فكرة اعتبار السكن كمجرد مأوى. وهكذا فإن إقراره بأهمية الإسراع في تشييد وإعادة بناء المساكن على نطاق واسع وبشكل مكثف، بعد الحرب، لمنح كل مواطن محلاً يحميه Abri ، لم يثنيه عن الإقرار بما هو أهم؛ وهو أنه لا يكفي أن نمتلك سقفاً فوق رؤوسنا لكي نتحدث فعلا وحقيقة عن فعل السكن؛ لأن فعل السكن Habiter ليس كفعل القطون (من قطن) loger. ففرق بين الساكن والقاطن، و"فرق بين أن يكون لك محل يحميك وبين أن يكون لك مكان في العالم"[20]. وهايدغر بذلك ينقل مسألة أزمة السكن والإسكان التي نُظر إليها ضمن منظور كمي إلى منظور نوعي؛ إذ يعتبر أن الأهم هو البحث في شروط توفير المباني لكي تكون فعلا مساكن تحقق الشرط الإنساني وليس مجرد مأوى يُبقيك على قيد الحياة. ومن هنا فإن مقاربته تقع على نقيض المقاربة الوظيفية للسكن والإسكان كما طورها لو كوربوزيي[21] في كتابه "ميثاق أثينا".

يعتبر هايدغر أن السكن ليس هو الشكل الهندسي للمسكن، أو للمحل المقطون. أي أن السكن لا يختزل في مجرد مأوى logement. إن السكن يعني فعل وطريقة السكن؛ إنه الشرط السكني؛ إنه إحدى مميزات الشرط الإنساني[22]. وهذا ما لم يُفكر فيه ولم يُلتفت إليه من قبل[23].

ليس للسكن إذن، حسب هايدغر، أي علاقة بالإيواء، أي أن تكون ساكناً لا يعني في شيء أن " تأوي إليه". صحيح أن العمارات توفر للإنسان حيزاً يقيم فيه؛ لكنه يسكنها ولا يسكن فيها[24]. لا يعني السكن إذن امتلاك مأوى، فمكان الإيواء ليس في الحقيقة إلا محلاً local، أي علبة يمكن أن نودع فيها الأشياء كما نودع فيها الأجساد. فلفظ الإقامة يفيد الاحتواء فقط ولا شيء غير ذلك. فالشقة إذن محل إقامة لأنها عبارة عن علبة، حتى وإن

---

[20] Céline Bonicco – Donato***, op.cit.*** p. 6.

[21] يتعلق الأمر بنظرية الوظائف الحضرية الأربع المقترحة من طرف لو كوربوزيي في إطار "ميثاق أثينا" (1945)، وهي: السكن، والعمل، والراحة، والجولان.

يُنظر كتابه: Le Corbusier, ***La charte d'Athènes*** (1943), Éditions de l'Architecture d'Aujourd'hui, Collection de l'équipement de la civilisation machiniste, Boulogne-sur-Seine, 1943.

[22] Martin Heidegger,« ***Bâtir Habiter Penser*** », in : Essais et conférences, Gallimard, Traduit de l'allemand par André Préau et préfacé par Jean Beaufret, 1958,pp. 170-193.

[23] Ibidem.

[*] حسب التمييز الذي يقيمه في كتابه "الوجود والزمان" بين "الوجود في العالم" كوجود مكاني وضمن أشياء العالم: " être » « dans le monde و "الوجود في العالم" « être au monde » بمعنى "الدازاين".

تعلق الأمر بدار تضم بيوتاً، تحوي عدة أجساد بشرية. وتأسيساً عليه، فإنه ليس كل البنايات مساكن[25] وليس السكن مجرد احتلال لمحل نقيم فيه ونأوي إليه[26]. لأنه، إذا كان الأمر كذلك، وبناء على هذا المنظور، فإنه يمكن اعتبار التابوت أيضاً مأوى[27]؛ فالجسر أو ساحة المطار أو ملعب أو محطة كهربائيه هي بنايات وليست مساكن[28].

مشكلة السكن، إذن، حسب هايدغر، لا يمكن اختزالها إلى مشكلة سوسيو- اقتصادية للإسكان. أن تسكن، بالنسبة لهايدغر، هو أن تكون إنساناً، والسكن تعبير عن الطريقة الخاصة للوجود الإنساني في العالم؛ إن الإنسان في ماهيته يعتبر ساكناً un habitant فوق الأرض؛ لكن هذا ليس إلا مجرد السمة الأولى لفعل السكن؛ إذ أن هذا الأخير لا يعني أن يكون لك محل، فوق الأرض، تقطنه وتمكث فيه؛ إنه أكثر من ذلك، هو تدبير عملية الوجود فوق الأرض، أو المكوث الأرضي، أي حمايتها والاعتناء بها[29]. إنه الطريقة الإنسانية المتميزة التي يوجد بها الإنسان في العالم بما هو "دزاين" (المعنى التقريبي: الوجود هنا في العالم كوجود متميز) ضمن تلك الوحدة الأصيلة للأرض والسماء من جهة، و للآلهة والناس من جهة أخرى، حيث تتواصل هذه المستويات فيما بينها لتشكل ما نسميه بالعالم في إطار "المركب الرباعي" Quadriparti[30]. أي العناصر الأربعة: الأرض والسماء من جهة، والإشارات الإلهية والناس من جهة أخرى، والتي تشكل مجتمعة كلّا موحداً انطلاقاً من وحدة أصلية[31].

إن تصور هايدغر حول كينونة السكن، يعتبر بمثابة انتقاد شديد للتصور الهندسي الحديث الذي من بين سماته الأساسية فصل الإنسان عن مجاله الطبيعي، واعتبار المجال كمجرد امتداد جغرافي؛ إذ أن المجال، يقول هايدغر، لا يوجد جاهزاً؛ بل يصير كذلك، من خلال الاعتناء بالأمكنة وتهيئتها وتدبيرها. ومن هذه الجهة، يصبح فعل السكن هو "ما يشكل السمة الجوهرية للكائن"[32] والمحدد لعلاقة الإنسان بالمجال الذي "ليس شيئا آخر غير السكن مفكراً فيه من حيث كينونته"[33]. يتعلق الأمر بفعل وجودي بمقتضاه "يحيى الإنسان قريباً من ذاته، ضمن الأشياء، ومع الآخرين[34]. وفي هذا الإطار، يذكرنا هايدغر بأن من بين المعاني الأصلية لفعل الإقامة[35] bâtir (في اللغة الألمانية bauen) هو استثمار الحقل وزراعة الكرمة. [36] كما تعني الإنسان من حيث هو ساكن، وبالوقت عينه تعني كلمة bauen الحماية

[25] Martin Heidegger**,« Bâtir Habiter Penser** », op.cit.
[26] Ibid.
[27] Ibid.
[28] Ibid.
[29] Ibid.
[30] Ibid.
[31] Ibid.
[32] Ibid.
[33] Ibid.
[34] Ibid.
[*] آثرنا ترجمة هذا الفعل بـ"فعل الإقامة" لما يحيل عليه في اللغة العربية من تأسيس وسكون وجوار .
[36] Martin Heidegger**, « Bâtir Habiter Penser** », op.cit.

والرعاية والتعهد العناية بثمار الحديقة[37]. بهذه الشروط يمكن للإنسان أن يسكن بطريقة تمكنه من إنقاذ الأرض[38] دون استغلالها واستنزافها[39].

وبهذا المعنى، فإن المجال بالنسبة للإنسان، يقول هايدغر، ليس ما هو بإزائي un vis-à-vis؛ إنه ليس موضوعا خارجياً ولا تجربة داخلية. الأمر لا يتعلق بوجود الناس ثم المجال بعد ذلك؛ لأنه عندما أنطق بكلمة 'إنسان" فإنما عني بها ذلك الكائن الذي يوجد على نحو خاص؛ أي من حيث هو كائن يسكن، أي يقيم ضمن المركب الرباعي بالقرب من الأشياء[40]. (وهذا معناه أن الإنسان هو الأنس والجوار).

يصبح فعل الإقامة إذن أساس فعل السكن، بحيث أن "العلاقة بين فعل السكن وفعل الإقامة كعلاقة الغاية بالوسيلة"[41]؛ لكن دون أن يعني ذلك أن فعل الإقامة ليس مجرد وسيلة للسكن لأن فعل الإقامة هو من حيث المبدأ وفي ذاته فعل السكن.

من جهة أخرى، يذكرنا هايدغر بأن السكن سلوك إنساني؛ لكن ليس سلوكاً إنسانياً ضمن سلوكات أخرى كالعمل والسفر، أي سلوكاً ينضاف إلى سلوكات أخرى توجد على نفس المستوى وداخل نفس النظيمة .série ؛ بل إنه السلوك الذي يرأس (يوجد على رأس) كل سلوك ممكن[42]، إنه الحضن الذي يحضن كل السلوكات؛ لأن فعل السكن ليس وظيفة، بل إنه شرط؛ بل إنه بالأحرى، "السمة الأساسية للشرط الإنساني" التي تحقق كينونته وذاته الوجودية.

وبناء عليه، يؤكد هايدغر على أن الحلول التي أوجدتها السلطات الألمانية، التي كانت تمر بأزمة إسكان خانقة، نتيجة القصف المدمر الذي تعرضت له من قبل الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية، للأزمة تكمن في إيجاد محلات لائقة بمعايير الحياة العملية، وبأثمنة متاحة؛ محلات مفتوحة على الهواء والضوء والشمس؛ لكنها لا توفر إمكانية السكن (السكينة) بالمعنى الحقيقي، يقول هايدغر[43].

في عز أزمة السكن بألمانيا التي أصابها الخراب يعلن هايدغر، بكل هدوء، أنه ليست هناك أزمة للسكن، ليضيف بعد ذلك:"إن أزمة السكن الحقيقية لا تكمن في خصاص في المآوي logements, "الأزمة الحقيقية للسكن تكمن في أن الناس سيكونون دائماً مطالبين بالبحث عن كينونة السكن، كما يجب عليهم أولاً تعلم فعل السكن"[44]، كما تكمن في أن الناس، وهم بداخل هذه المساكن، سيكونون في حاجة إلى كينونة السكن[45]. وهذه الكينونة تكمن في أن تكون فرحا وآمنا، محمياً ومصونا[46]؛ "فعل السكن هو تكون في أمان، وحرية

[37] Ibid.
[38] Ibid.
[39] Ibid.
[40] Ibid.
[41] Ibid.
[42] Ibid.
[43] ibid
[44] Ibid.
[45] Ibid.
[46] ibid

هكذا يصبح السكن ضامناً للأمان فوق الأرض كما الإنسان في حضن أمه. سكن يسمح بالتأمل والتفكير؛ لأن الوجود الإنساني يتجاوز الوظائف الأربعة: العيش، والعمل، والاستراحة، والجولان. وهكذا فأن التفكير من أجل السكن يشكل إلى جانب فعل الإقامة جزءاً من السكن.

في ظل إجبارية العزل المنزلي تتحول هذه الشقق السكنية، يوماً بعد يوم، إلى محاجر خانقة وجحيم لا يطاق[47]، وسبباً في إنتاج أمراض إضافية جسدية ونفسية حادة؛ بل وتهدد الصحة العقلية، وعائقاً أمام التصدي لهذه الأزمة الصحية العالمية، والتي قال عنها هايدغر إنها تواصل تقويض الأسس الحقيقية للسكن، في الوقت الذي ينعم فيه كبار الملاكين والبورجوازيين، الذين يحرصون على رعاية هذا النموذج الذي يدر عليهم أرباحاً طائلة لا يمكنهم التفريط فيها بأي حال من الأحوال، في "مساكن" فسيحة تتوفر على كل سبل اللهو[48]، بالمعنى الباسكالي. وهذا يبطل، ولو جزئياً، الدعوى القائلة بأن الوباء ساوى بين جميع الناس.

إن الدعوة إلى البقاء في البيت دعوة لا تراعي بأن "البيوت تتفاوت ما بين الفيلات والقصور والأكواخ، والشقق ذات الشرفات، والشقق بدون شرفات، كما لا تراعي حجم عائلة وأخرى، فثمة فرق بين التجول في دار مترامية الأطراف حيث يحافظ أفراده على خصوصياتهم على الرغم من إقامتهم سوية فيه، وبين حشر عائلة كبيرة في شقة ضيقة لا يمكن إلّا أن تكون مصدراً لعنف أسري ومضارّ نفسية وجسدية.

يعتبر هايدغر أن المنزل[49] القروي، هو وحده الذي يحقق "المركب الرباعي"، وقد تم تقويضه عندما تمت عملية عولمة نموذج السكن الحديث على حساب البنيات التقليدية الأصيلة والخصوصيات الثقافية والحضارية لباقي الشعوب؛ وهو نموذج يفصل الإنسان عن جذوره Le déracinement de l'homme، ولا يخفف من مساوئه إلا المساحات الخضراء والحدائق الجميلة، خاصة في الدول المتقدمة؛ غير أن ذلك يُعدّ بدوره فصلاً؛ لأنه يفصل الإنسان عن علاقته المباشرة بالطبيعة ولا يحقق مطلب "السكن المنزلي" بالمعنى الذي بيّناه.

3- **معاناة الحجر في ضوء تجربة الشيخوخة: كيكرو** (ولد في " يناير 106 ق. م وتوفي مقتولاً يوم 7 دجنبر 43 ق.م)

---

* غرفة شبيهة بتلك التي وصفها الفيلسوف سارتر في مسرحيته التي كتبها عام 1943 تحت عنوان " أبواب مقفلة" والتي يصف فيها ثلاثة أشخاص فُرض عليهم التعايش فيها عنوة. وهي المسرحية التي ختمها سارتر بعبارته الشهيرة : "الجحيم هو الآخرون".

*والذين ينوعون أمكنة الإقامة بين السهول والجبال والبحار، كما يغيرون مساكنهم، مختلفة الأشكال الهندسية، ليس بحسب تغير أحوال الطقس والفصول فحسب، بل بحسب تغير أمزجتهم الخاصة.

* بالمعنى اليوناني للكلمة، أي (الإيكوس) - οἶκος كما ورد في كتاب **اكسينوفان** الذي يعرف المنزل بالقول:

« Une **maison** est pour nous la même chose que toute espèce de possession, et nous avons appelé possession ce qui pour chacun est utile à la vie ; enfin le mot utile, nous l'avons appliqué à tous les objets dont on sait user », Xénophon, ***Economique***, TRADUCTIONFRANÇAISE-DE TALBOT, REVUE ET ANNOTÉE PAR M. DE PARIYAJO.V, Paris, 1886, p.43.

وهو المعنى الذي يوافق تعريف "الاقتصاد" كتدبير للمنزل كما ترجمه الفلاسفة المسلمون في العصر الوسيط.

إذا كان صحيحاً أن هذا الوباء الكاسح يفتك بشكل خاص بالعجزة وكبار السن[50]، فإنه أدخل جميع العباد، من مختلف الفئات العمرية، في وضعية الحجر؛ وجعل الجميع، بدون استثناء، يعيش تجربة الشيخوخة الصعبة.

يحصي **كيكرو** أربعة أسباب تجعل الشيخوخة صعبة التحمل:

السبب الأول: لأنها تبعدنا عن أشغالنا؛

السبب الثاني: لأنها تضعف أجسادنا؛

السب الثالث: لأنها تحرمنا من اللهو؛

السبب الرابع: لأنها تجعلنا بمقربة من الموت.

لهذه الأسباب الأربعة صار الحجر، كما الشيخوخة، معاناة مؤلمة. إن المحجورين، شيوخاً أو شباباً، ستتضاعف معاناتهم، والحالة هذه، إذا تعرضوا للإهمال. يقول **كيكرو** في هذا: "إنه ليس هناك ما هو أكثر إيلاماً لكبار السن والعجزة، وهم في حالة العزل، من الإهمال"[51]. (وقد تبيّن للجميع، خلال كارثة كورونا الحالية، مدى أهمية الدولة الراعية في إغاثة المكلومين والتخفيف من معاناتهم وهم في الحجر[52]).

---

* يميز **كيكرو** في الشيخوخة بين مرحلتين: مرحلة كبار السن (*presbuteis*) من 55 إلى 65 سنة، وبين مرحلة الشيخوخة الفعلية (*gerontes*): ما فوق سن 65.

[51] Cicéron, ***La vieillesse***, op.cit., p.6.

* لكن رغم ذلك، يُخشى أن يتم استغلال حاجة الشعب للحماية، لتقوم بنشر الخوف كـ"سلاح وباءي". كما أن هناك تخوفاً من الشطط في استعمال السلطة بحيث تذكرنا بعض الإجراءات الانضباطية المصاحبة لفرض حالة الطوارئ الصحية، في الكثير من الدول، بتلك التي تم اتخاذها في أوروبا القرن التاسع عشر لمحاربة وباء الطاعون، والتي يتحدث عنها **ميشيل فوكو** بشكل مفصل في سياق تحليله للمجتمع الانضباطي. نقرأ مثلاً ما يلي: " هذه هي، بموجب نظام صادر في أواخر القرن السابع عشر، التدابير التي يجب اتخاذها عندما يتفشى الطاعون في مدينة ما. يقول فوكو:

"في بادئ الأمر حصر فضائي صارم: إغلاق، بالطبع، في المدينة وفي "ملحقاتها" ، منع الخروج منها تحت طائلة الإعدام، القضاء على الحيوانات التائهة؛ تقطيع المدينة إلى أحياء منفصلة بحيث تقام في كل حي سلطة لمشرف، كل شارع يوضع تحت سلطة إداري؛ يتولى مراقبته؛ فإذا تركه تعرض لعقوبة الموت. في يوم معين، يطلب إلى كلّ أن يغلق باب بيته على نفسه: ويمنع الخروج تحت طائلة الإعدام. يأتي الإداري بنفسه فيغلق من الخارج باب بيته؛ ويأخذ المفتاح فيسلمه إلى المشرف على الحي؛ يحتفظ المشرف بالمفتاح حتى نهاية الحجز الأربعيني (كارنتينا)"، ص. 206.

ميشيل فوكو، ***المراقبة والمعاقبة. ولادة السجن*** ، ترجمة : د.علي مقلد، مراجعة وتقديم: مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1990. (صدر الكتاب في أصله الفرنسي عام 1975)، الفصل الثالث بعنوان: ***البانوبتية أو الإشراف*** من ص. 206 إلى ص. 232.من القسم الثالث بعنوان : الانضباط.

وهذا ما تحدث عنه بتفصيل الفيلسوف الكوري الجنوبي المعاصر المقيم بألمانيا: ***بيونغ شول هان***، بمناسبة أزمة كورونا من حيث رهاناتها وتداعياتها، محذراً مما سماه سلطة "الفيودالية الرقمية" (نموذج الصين)، انطلاقاً من المفهومين اللذين نحتهما **فوكو** " البانوبتيكية" و " البيوسياسية" كدزء من نظريته حول: "بيو- سلطة" une théorie du **biopouvoir** (يُنظر كتابه الذي هو عبارة عن درس في الكوليج دو فرانس ما بين سنتي 1978- 1979 : (**Naissance de la biopolitique** , Gallimard, 2004)

https ://www.clarin.com/cultura/byung-chul-vamos-feudalismo-digital-modelo-chino-podria-imponerse_0_QqOkCraxD.html

(تفيد الإشارة هنا إلى مشروع القانون تحت رقم 20-22 الذي حاولت الحكومة المغربية تمريره قبل التراجع عنه تحت ضغط الرأي العام الفايسبوكي الذي أطلق على هذا المشروع تسمية: قانون تكميم الأفواه).

. وكما عبّر عن ذلك **سنيكا** في "طمأنينة النفس": " عندما نحرم من اللهو لا نتحمل أن نكون منعزلين، وحيدين بين الجدران الأربعة للغرفة الواحدة .ومُهملين لا أحد يهتم بنا [53].

لم تستثن الجائحة إذن أحداً؛ لقد مست جميع االطبقات الاجتماعية؛ الأغنياء والفقراء؛ الذين يملكون والذين لا يملكون. بحيث أصبح الجميع سواسية أمام الفيروس، لكنه، اجتماعياً، فإن الإمكانيات والفرص ليست متساوية.

ومهما يكن من أمر، فإنه في جميع الحالات يصعب تحمل معاناة العزل المنزلي؛ لأنها مثل الشيخوخة، كما بيّن ذلك **كيكرو**، يصعب تحملها في شروط الفقر الحادة، كما يصعب تحملها من طرف أي معتوه ولو توفرت له كل شروط الغنى الفاحش[54].

في ظل الحجر يعيش الإنسان وضعية الريبة واللايقين؛ لأنه يجد نفسه في مواجهة المجهول والخوف من الموت، كما يجد نفسه في حقل الممكنات الذي يتقلص يوماً بعد يوم. كما يعيشون وضعية اللامعنى[55]؛ لأن ما يضفي المعنى على الوجود الإنساني في آخر التحليل، شيئين أساسيين وقد انتزعا منه:

الأول هو المشاريع والأشياء التي يهتم بها ويعلق آماله عليها، والثاني، وجوده مع الآخرين[56]:

لقد عزلتنا الجائحة عن مشاريعنا وانشغالاتنا الجدية والتافهة على حد تعبير بليز باسكال، كما عزلتنا وفصلتنا عن الآخرين؛ إذ لم يعد الغير قريبا منا بل أصبح عدوا مفترضا، أصبح "الإنسان معد للإنسان" يجب تجنب الاقتراب منه وملامسته[57].

قدم كيكرون تصوراً إيجابياً عن الشيخوخة مخالف للتصور التشاؤمي لكتاب التراجيديا أو الكوميديا، والفلاسفة اليونانيين السابقين[58]؛ تصور يصحح فيه النظرة التشاؤمية التي

---

[53] Sénèque, **La Tranquillité de l'âme**, op.cit.
[54] Cicéron, ***La vieillesse***, op.cit, p.6.

[*] بحثاً عن المعنى في ظل الحجر، تخبرنا وسائل التواصل الاجتماعي بمجموعة من مبادرات التضامن الإنسانية كمساعدة المحتاجين عن طريق إرسال بعض الإعانات، والاتصال بالذين يعيشون وحدهم لمؤانستهم، وتقديم النصائح الصحية والنفسية، و تقاسم الفيديوهات المختلفة.. الخ.

[*] الوضعية شبيهة بما يُعرف بـ"معضلة (أو مطبّ القنفذ)، وتسمى في بعض الأحيان بـ"كناية النيص" – La parabole des porcs épics. وهي كناية عن التحديات التي تواجه العلاقات البشرية الحميمية كما يصفها **آرتر شوبنهاور** في: « Parerga et Paralipomena»: في فصل الشتاء عندما تكون هذه الثدييات معزولة، بعيدة عن بعضها البعض، تحس بالبرودة؛ لكن عندما تلتحم فيما بينها لتبادل الحرارة، تؤذي بعضها البعض بأشواكها. تجد هذه الحيوانات نفسها بين العزلة الباردة وتلاحم حار، لكنه مؤلم ومؤذي. يتعلق الأمر باستعارة تعكس حاجتنا المفارقة إلى الآخرين؛ فنحن في حاجة للالتحاق بالآخرين للتعويض عن فراغ ورتابة حياتنا الجوانية بحيث أننا عندما نكون وحدنا نكون في حاجة لأن نكون مع الآخرين، وعندما نكون مع الآخرين نكون في حاجة لأن نكون وحدنا، أي في حاجة لـ"تباعد اجتماعي".

[*] تجنب "اللمس"، سواء تعلق الأمر بلمس أسطح الأشياء أو المصافحة، يُنظر في الحالة الأخيرة، المقال الجميل للأستاذ **عثمان الزياني** تحت عنوان: جائحة كورونا و"اللمس السياسي"، https://banassa.com/opinions/19550.html

[58] **Jean-Paul** Resweber, « **Le rêve cicéronien d'une heureuse vieillesse** », *Le Portique* [En ligne], 21 | 2008, mis en ligne le 05 juin 2010, consulté le 01 mai 2020. URL : http://journals.openedition.org/leportique/1863

قدمها مثلا هوميروس أو أرستوفان أرسطو (الذي استعمل تعابير قدحية من قبيل: "العجوز الوغد" في كتاب الاستعارة، و"العجوز البخيل" في الأخلاق الى نيقوماخوس). وبمقتضى هذا التصور، يذهب كيكرون إلى أنه يمكن أن تكون الشيخوخة "شيخوخة سعيدة" متى توفرت مجموعة من المقومات ذاتية من بينها أساساً:

- المناعة الفكرية والعقلية التي يستمدها من ثلاثة مصادر:

أولاً: من "الموارد الداخلية؛ إذ أن "الأشخاص الذين يفتقرون لموارد داخلية يعتمدون عليها ليعيشوا حياة سعيدة يجدون كل فترة من عمرهم قاسية"[59]. ويقصد بذلك، أساساً، الطاقة الفكرية و"العقل المستقيم" (recta ratio) الذي يمنحه الحكمة (بمعنى الفرونيسيس- La *phronêsis*). وهكذا فإنه لا عزاء لنا في شيخوختنا، يقول كيكرو، إلا العقل[60] الذي بفضله نتحرر من سجن "هندسة الجسد"[61] المعطّل والمتهالك ويؤثث فراغنا الوجودي ويرمم هشاشتنا الأصلية. السعادة إذن لا يمكن إلا أن تكون سعادة عقلية، وأما الملذات الحسية فلا تحقق إلا سعادة زائفة[62]. وهكذا يمكننا تحويل "الحجر البدني" إلى "لاحجر عقلي" كما عبّر عن ذلك **إدغار موران** في إحدى حواراته[63].

ويستمدها، **ثانياً**، من خزان الذاكرة السعيدة التي تمنح لصاحبها راحة الضمير. يقول **كيكرو** إن أحد الأسلحة الفعالة لمواجهة الشيخوخة وعزاءنا في فقداننا لحريتنا الاستنجاد بمخزون الذاكرة أو ما يسميه القديس أوغسطين بـ"قصر الذاكرة الفسيح"[64] "الوعيُ بماضي مشرف يكمن في ذكرى التعامل الايجابي والخيّر مع الآخرين[65]. إن الذاكرة، كاستحضار للماضي، تصبح بمثابة تغذية راجعة وثمرة من ثمار الشيخوخة[66]. ترتبط الذاكرة السعيدة إذن بالماضي الشريف للشخص. ما يمنح الهبة (autorité) للشيخ ليس الشعر الأبيض (الشيب) أو التجاعيد؛ بل الحياة الماضية إن كانت حياة شريفة[67].

---

[59] Cicéron, ***La vieillesse***,op.cit., p.5.

[60] Ibidem.

[61] Ibid., p.26.

[*] بلغت درجة احتقار **كيكرو** للملذات الحسية أن ربطها بالخيانة؛ خيانة الوطن والتأمر ضده بالتعاون والتخابر مع أعدائه، كما يربطها بكل الرذائل والفواحش، « Cicéron, ***La vieillesse***, traduction française de Vincent Ravasse, Aout 200 Quebec.، ص.16. لكن من المفارقات العجيبة أن **كيكرو** كان رجلاً جد ثري، وهذا هو شأن جلّ إن لن نقل كلّ الفلاسفة اليونانيين والرومان على وجه الخصوص، الذين كانوا بدورهم كبار الملاكين العقاريين يملكون البساتين والضيعات الفسيحة والمساكن الكثيرة فضلاً عن العبيد الذين يخدمونهم؛ لكن ما يميز الفلاسفة، عموماً، هو أنهم مستعدين للتضحية بكل ذلك من أجل أفكارهم ومبادئهم.

[63] « le confinement physique devrait favoriser le déconfinement des esprits », https://www.lemonde.fr/idees/article/2020/04/19/edgar-morin-la-crise-due-au-coronavirus-devrait-ouvrir-nos-esprits-depuis-longtemps-confines-sur-l-immediat_6037066_3232.html

[64] Saint Augustin, **Les Confessions**, Flammarion, paris, 1964, p.211.

[65] Cicéron, ***La vieillesse***, op.cit., p.6.

[66]Ibid., p.25.

[67] Ibid., p.23.

وجدير بالذكر أن من بين أوجه هذا الاستحضار المُؤنس للعجزة، يقول **كيكرو**، النقاش والحوار[68]؛ لكن يبدو أن وسائل التواصل الاجتماعي، إن لم نقل إنها أبطلتها تماماً، فإنه من المؤكد أنها قلصت من مجال حضورها إلى حد بعيد.

ويستمدها، **ثالثاً**، من الاستمتاع بالطبيعة التي تجعل الإنسان كائناً حراً[69]. وفي هذا الإطار، يتحدث

كيكرو عما يسميه "مباهج الحياة القروية"[70] الناتجة عن العيش في وفاق مع الطبيعة[71]، والاعتناء بالأرض والاستمتاع بثمارها؛ خاصة رعاية الكروم التي تحدث عنها هايدغر أيضا كما مر معنا أعلاه. والعيش في وفاق مع الطبيعة منصتين[72]إليها ومستلذين بسحرها[73]؛ لأن

---

* رغم الدور الإيجابي الذي لعبته وسائل التواصل الاجتماعي في الترويح عن النفس خلال فترة الحجر، فإنه قد لوحظ أن هناك استهلاكاً مفرطاً للأنترنيت، خاصة لدى الشباب، إلى درجة هناك من يتحدث عن: "أومو – ويفي" – Homo - wifi الذي فرض نوعاً من "العزل الاجتماعي" قبل أزمة كورونا.

[69] Cicéron, ***La vieillesse***, op.cit., p.37.

[70] Ibid., p.19.

* حسب **بوئيثوس** يجب الكف عن الشطط في استغلال خيرات الطبيعة "لا يجب أن تطمع في طبيعة تكرم عليك بما هو زائد عن اللزوم. لأن الطبيعة تكتفي بالحد الأدنى وبالمقدار الأقل، وإذا شئت ان تستزيد وتطالبها بما يفوق طاقتها، فإن هذا الإفراط ستكون له نتائج سيئة ومضرة بها"؛

Boèce, ***Consolation de la philosophie***, Préface de Marc Fumaroli, petite bibliothèque Rivages, Traduit du latin par Colette Lazam, Paris 1989, p.87.

إن كل محاولة لإلحاق الضرر بالطبيعة ستكون لها نتائج مضرة بالإنسان، وكسلاح يرتد ضد صاحبه، أي كـ: boomrang، كما عبر عن ذلك الفيلسوف الأرجنتيني إنريكي دوسي، https ://www.jornada.com.mx/2020/04/04/opinion/008a1pol

* كان مسمى "الحكيم" باللغة الأكادية ببلاد الرافدين القديمة هو: **amqu** ou **hasisu**': اللفظ الأول مشتق من الجذر السامي mq‘(عمق) الذي يدل على العمق. الثاني مشتق من الجذر hss يعني فتح الأذنين واستراق السمع (القدرة على الانصات والفهم).

وهذا ما يقابله في اللغة السومرية عبارة:

lu. Geshiu. Dagal., (« l’homme au vaste entendement ») – littéralement« à l’oreille large ».

كلمة **nemequ** الأكادية المشتقة بدورها من جذر **mq‘** تدل على لفظ الحكمة. والتي تدل أيضاً على حذاقة العقل وحدة البصيرة بحيث يمكن إدراك مشكلة ما في ماهيتها وفي كليتها والقدرة على ايجاد حل مناسب لها.

تجدر الإشارة إلى أن الحكمة **nemequ** بنت الوحي: للحكيم علاقة بالالوهية تتجلى في الوحي الذي خُصّ به الحكيم قد يأخذ في بعض الاحيان شكل ملاك. وهذا ما تعبر عنه كلمة ’’حسّاسو‘‘ السالفة الذكر وألفاظ أخرى مثل: "تكميلتو".

taklimtu (racine kullumu, « montre ») et shubru (forme factive de la racine baru, « regarder »).

الحكيم إذن ، وبالمعنى الحرفي، هو الشخص دو الأذنين الكبيرين اللذين بفضلهما ينصت لوحي الطبيعة والكون.

Jean – jacques Glassne, **« La philosophie mésopotamienne** ». Encyclopédie philosophique universelle, t.1, Paris, Vrin, 1968.

* ماكس فيبر يتحدث عن نزع الطابع السحري عن العالم .«désenchantement» ...لكي يصف مسار فقدان الطبيعة لسحرها، ولغزها، بعد التخلي عن الاعتقاد بأن الظواهر الطبيعية مشحونة بمعاني أخلاقية غير قابلة للتفسير.وقد لاحظ **فيبر** أن هذا التغير كنتيجة للطابع العقلي الأنواري خاصة في تركيزها على العلم كمصدر لتفسير العالم الطبيعي، ما عبر عنه القدماء باعتبار الطبيعة مادة حية. ونتيجة للانتقال إلى رؤية علمية للعالم للتحكم في الطبيعة والسيادة عليها (حسب العبارة الشهيرة **لديكارت**) وتوظيفها لحاجياته وأهوائنا. هذه الرؤية، كما لاحظ فيبر، لم تترك حيز للمعاني والقيم المتعالي لتشكل جزءاً من الطبيعة. والنظر إلى الطبيعة كمجرد خزان للطاقة

في ذلك علاج لكل لوعة. وفي هذا الصدد ورد في كتاب الشيخوخة **لكيكرو** أن " هوميروس يذكر أن لاييرت (أب عوليس) لم يجد سبيلاً للتخفيف عن لوعة فراقه لابنه سوى الانشغال بزراعة وتخصيب أرضه "[74]. وكأنه بذلك يخضع لعملية "تطبيب طاقي"[75].

خاتمـــــــة:

بالالتفات إلى ما سلف، يتبيّن لنا أن معاناة تجربة الحجر، الشبيهة بتجربة الشيخوخة، تجد أصولها في أسباب ذاتية وموضوعية. وقد كان من الممكن أن يكون تجربة أقل إيلاماً وتكلفة لو توفرت للناس مساكن مريحة، وفضاء طبيعي، واستعداد روحي. وهكذا، فالحجر، الذي تحول مع طول المدة إلى تقييد صارم للحرية و"إقامة جبرية" يتمنى الجميع الخروج منها في أقرب الآجال وبأقل الخسائر، أصبح مثل **الفارماكون**: قد يكون دواء كما قد يكون سماً بحسب إمكانيات واستعدادات كل واحد منّا.

لقد علّمنا الحجر "ما هو الأساسي" Lo esencial [76]، وأن نمط حياتنا كان مجرد سلوكات تعوّدنا عليها ومن الممكن الاستغناء عن جزء كبير منها، كما يمكننا الاستغناء عن كل ما له علاقة باقتصاد الفضلات والمرميات التي لا فائدة لها في حفظ الصحة البدنية والنفسية؛ هذه العادات المرتبطة بنموذج "السعادة الموجهة" القائم على الاستهلاك والذي يصنعه ويحميه ويرعاه المهووسون بالشهرة من المتبجحين والأنذال[77].

مما لا شك فيه أنه سيكون لهذه الجائحة التي ضربت العالم طولاً وعرضاً، والتي جعلت أنظمة صحية واقتصادية على حافة الانهيار، تداعيات وجودية من شأنها إحداث تغيرات في هوياتنا الشخصية والاجتماعية، كما ستفرض عدة مراجعات في الرؤى النظرية نتجت عنها خيارات عملية كما نتجت عن الكوارث السابقة التي عاشتها الإنسانية. لكن المعوّل عليه، أساساً، هو تشريعات قانونية على المستوى الدولي؛ لأن غريزة النسيان[78] ستجعل الإنسانية تعود إلى سابق عهدها في السلوك والتفكير. أي لا بد من تشريعات دولية جديدة لمواجهة آثار هذه الأزمة حالاً واستقبالاً. ومن البرامج المستقبلية المستعجلة توفير شروط الخلوة الاختيارية بتوفير شروط السكن الملائمة بالتفكير في استراتيجية معمارية

قابلة للاستغلال من أجل تحقيق ملذاتنا. وهنا تندرج الدعوة إلى إعادة الطباع السحري للطبيعة **Re-enchanting Nature** **لألكسيس بابازوغلو** Alexis Papazoglou

https://blog.apaonline.org/2020/04/28/coronavirus-and-re-enchanting-nature/

[74] Cicéron, ***La vieillesse***, op.cit., p.20.

[75] Boèce, ***Consolation de la philosophie***, op.cit., p.67.

* أصبح من المفاهيم الأساسية في زمن الجائحة للتعبير عن المهن والقطاعات التي أستثنيت من حالة الطوارئ الصحية القطاعات والخدمات الأساسية التي لا غنى عنها لاستمرار الحياة، وللتمكن من محاصرة الوباء، في مقدمتها الطب بطبيعة الحال.

*يقول بوئيثوس إن هناك خمس عناصر يعتقد هؤلاء أنها سعادة حقيقية في حين أنها مجرد سعادة زائفة. وهي: الثروة، والسلطة، والمكانة الاعتبارية، والشهرة، والملذات، Boèce, ***Consolation de la philosophie*** , op.cit., pp. 123-124.

* يقول باسكال: "ما مصدر كون إن هذا الشخص، الذي فقد قبل أشهر قليلة، ابنه الوحيد {...} كان جد مضطرب هذا الصباح، والآن لم يعد يفكر فيه؟. كما يتساءل: " كيف لهذا الشخص الذي كان مصعوقاً بفقدان زوجته أو ابنه الوحيد {...} تجده في هذه اللحظة غير حزين، وقد تخلص من كل الأفكار المؤلمة والمزعجة؟"، Blaise Pascal, ***Pensées***, op.cit., pp.68-69.

جديدة للمجال قائمة على الدمج بين البادية والمدينة ضمن نسيج حضري متكامل، حتى يتعلم الإنسان: "المكوث ببيته هادئاً" (باسكال)، و"تدبير المتوحد" (بعبارة ابن باجة)، "البينونة" (بعبارة أبي حيان التوحيدي) وفقاً لشعار: « Learn to be with yourself and let others be »

لائحة المراجع:

Blaise Pascal, ***Pensées***, Hachette, 1950.

Boèce, ***Consolation de la philosophie***, Préface de Marc Fumaroli, petite bibliothèque Rivages, Traduit du latin par Colette Lazam, Paris 1989

Céline Bonicco – Donato***, Heidegger et la question de l'habiter. Une philosophie de l'architecture*** , Parenthèses, 2019, p. 7.

Cicéron, La ***vieillesse***, traduction française de Vincent Ravasse, Aout 200 », Québec

Foucher Angèle. ***Cicéron et la nature***. In : Bulletin de l'Association Guillaume Budé, n°3, octobre 1955.p. 32-49

Martin Heidegger***,« Bâtir Habiter Penser*** », in : Essais et conférences, Gallimard, Traduit de l'allemand par André Préau et préfacé par Jean Beaufret, 1958,pp. 170-193.

Lucio Anneo Séneca, diálogos, estudio preliminar, traducción y notas de Carmen codoñer, cuarta edicion, Tecnos, Madrid, 2016.

Xénophon, ***Economique***, TRADUCTIONFRANÇAISE-DE TALBOT, REVUE ET ANNOTÉE PAR M. DE PARIYAJO.V, Paris, 1886.

ميشيل فوكو، ***المراقبة والمعاقبة. ولادة السجن*** ، ترجمة : د.علي مقلد، مراجعة وتقديم: مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1990. (صدر الكتاب في أصله الفرنسي عام 1975).

مركز أفكار للدراسات والأبحاث

Afkaar Center for Studies and Research

https:// Afkaar.Center

afkaarcenter@gmail.com

twitter.com/AfkaarCenter

facebook.com/AfkaarCenter

ALL RESERVED©2020

جميع الحقوق محفوظة © 2020